وجلست الى طاولتي . اخرجت القوائم ، وراحت الاسماء المتشابهة تمتد امام بصري مثل طريق لا نهاية له ، وبدت لي فجأة سلسلة من القيود التي تكبلني وتحول دوني ودون ان اتحرك. خطر لي ان استل القلم الاسود العريض وامضي اشطبها واحدا وراء الآخر، أو اختار اسماء بعينها فأشطبها ، ولكنني استبعدت ذلك ، واخذت انظر الى المخزن عبر الباب نصف المفتوح ، حيث كنت اقف في حلمي واخطب بصوت مجلجل ، وخيل الي ان الباب الكبير للمخزن سيتحطم تحت قبضة الجموع في لحظة واحـــدة ، وان اللاجئين سيتقدمون صفا وراء صف مثل سيل لا يكف عن الهديــر ، وان اصواتهم الغاضبة ستحطم ، فيما ستحطمه ، بوابات الصمت المغلقـــة في أذني . سيحدث ذلك . هذه اللحظة . هذه اللحظة . وقفت واستندت على الطاولة واخذت احدق ببوابة المخزن . هذه اللحظة . الدوي سيتفجر الآن . الآن . الآن . فجأة استبدت بي استثارة لم أعشها في حياتي ، وشعرت انني أرتجف بلا هوادة وكادت عيناي تنفجران وانا اصوب نظري الى ذلك الباب المغلق . كأنه باب الصمم . باب الموت . باب القدر الذي لا يهزم والذي يوشك في اللحظة التالية أن يتقوض . كنت في قرارة نفسي متيقنا من انه سيتحطم امام الاكتاف المتكدسة وراءه لصف من اللاجئين طوله عشرون سنة مرة . سيتحطم في اية لحظة . فجأة ضاع ذلك الحد الذي يفصل بين الحلم وبين الحقيقة وامتزج كل شيء ، ورايت بعين الحقيقة ما رايته ليلة أمس مئة مرة بعين الحلم . انهم يجمعون ارادتهم في اكتافهم وراء هذا الباب ، يكورون قبضاتهم فتصبح مثـــل الصخور المحيطة بصفد ، ويستعدون . هذه اللحظة . هذه اللحظة . الآن . الآن . الآن .

ولكن غور الصمت أصبح اشد عمقا، وظل ، كما كان دائما ، يخيم على كل شيء ، نظرت حوالي ورايت في عيون الموظفين نظرات الدهشة المليئة بالخشية تنصب عليّ من كل جانب ، وكان مصطفى يبتسم ابتسامة لا تكاد ترى . تنهدت ، وفككت التوتر من قبضتي يدي اللتين كانتا ما تزالان مكورتين فوق خشب الطاولة ، وعدت فجلست .

بذلت جهدا كي لا انظر مرة اخرى الى ذلك الباب الكبير المغلق ، الصامت ، الذي يشبه شاهدة ضريح . ثم قلت لنفسي : « ها انت مرة اخرى يا أبا قيس تتوقع معجزة . لا . ان الامور يا حبيبي لا تحدث كذلك .. الله عليك شنو خفيف ! »

— ١٠ —

نمت في غرفة الفرن ، فوق فرش الخبز ، وقبل ان اغفو سمعت خطوات حمدان الخافتة تتجه الى الباب ، حيث مد فراشه ونام . قلت لنفسي : « انه ينام أمام الباب كي يصحو اذا ما حاولت الخروج . لقد وجد لنفسه اخيرا عملاً مفيدا يرضي ضميره . عين نفسه دركيا لحراسة الولي !. آه كم يحتوي كيس البؤس من الاخاديع .! انه يشبه نبعا لا تنضب مياهه .. » .

وبدا لي حمدان ، بجسده الضئيل وطيبته وتصميمه ، سدا يشبه جدارا من الصخر ، يقف امامي وامام ابي قيس ، وانه ، على صغره ، يحجب من امام اعيننا امتداد الطريق الذي ضيعناه . اخذت اسمع تنفسه الثقيل ، تنفس رجل اعتصر عضلاته طوال النهار بالعمل المضني ، وهو يغطس في عالم النوم كما يغطس رجـــل في العمى او رجل في الصمم ، وكان نومه هناك تمثيلاً طريفا لواقع أحسه احساسا صميميا : فقد كان فعلاً يغلق الباب بجسده القوي ، ويعرقل امامي طريق الخروج ، لو شئت ان اخرج ، وبدا لي ان اختياره العفوي هذا ليس في الحقيقة الا تجسيدا عابرا لدوره في حياتي .

ولم اكن اعرف من حمدان الا صوته ، وهو صوت فتى عقد عزمه وقر رايه وملأ نفسه بقناعات صغيرة ولكنها متراكمة في كل جسده . كانت زحزحته مستحيلة ، وكان الحوار معه اكثر صعوبة . ففي عالم مرتب على تلك الصورة التي في راس حمدان يستحيل